النشـــــــــــرة

تصـــدرها مطـــرانية الـــروم الأرثوذكـــس في بـــيروت

العدد ٧ / ١٩٨٨
الأحد ١٥ شباط

أحد الإبن الشاطر
تذكار القديس أونيسيموس الرسول

اللحن الثاني
إنجيل السَحَر الثاني

الـــرســـالـــة (١ كورنثوس ٦ : ١٢ – ٢٠)
الإنـــجـــيـــل (لـــوقـــا ١٥ : ١١ – ٣٢)

+ أحد الإبن الشاطر

في الأحد الثالث قبل الصوم الكبير نقرأ مَثَل الإبن الضال او الإبن الشاطر (لوقا ١٥: ١١ – ٣٢) الذي شطر ثروة أبيه وبدّدها في الملذات والعهر ثم عاد تائباً. هذا المثَـــل هـــو صورة عن حالة البشر. عبر الخطيئة فقدنا العلاقة مع الله والرباط به الذي يجعلنا أبناء لـــه. سلكنا في طريقنا الخاص التي قادتنا بعيداً عن الله فافتقرنا اليه، لكن الله رحيم وقـــد أعطانـــا إمكانية العودة. عندما نعي الحالة المزرية التي نحن فيها ونتوق الى الأفضل، عندهـــا تبـــدأ رحلة العودة الى منزلنا الأصيل. الله، مثل الأب في القصة، ينتظرنا بفارغ الصبر، ينتظـــر عودتنا بفرح. وعندما يرانا من بعيد يركض نحونا ويفتح ذراعيه ليستقبلنا. ويلبســـنا الحلـــة الجديدة ويقيم الإحتفال الكبير. الذراعان هما يدا الله في المسيح الممدودتـــان لأجلنـــا علـــى

الصليب والإحتفال هو حياة القيامة الأبدية، العيد الذي سوف يدعونا اليه القديس يوحنا الذهبي الفم في عظة ليلة الفصح.

في صلاة غروب أحد الإبن الشاطر نرتل ''إني اؤتمنت على كورة نضرة منزهة عن الخطأ، فزرعت الإثم في أرضها وحصدت سنابلها بمنجل الكسل، وجمعت أكداس أعمالي حُزَماً، ولم أضعها في مِدْرس التوبة، فلذلك أسألك يا إلهنا الفلاح الأزلي، ان تذري تبن أعمالي بنسيم محبتك العطوفة، وان تملأ نفسي من قمح الغفران، واخزنّي في أهرائك السماوية وخلّصني''. ونلاحظ عمق التوبة التي تعبّر عنها هذه الصلاة. وفي صلاة السَحَر: ''أيها الأب الصالح، اني ابتعدت عنك فلا تهملني ولا تطردني من ملكوتك. ا ن العدو الكلّي شرّه قد عرّاني وسلب ثروتي، وقد بدّدت مواهب نفسي بالبذخ، فلأنهض اذاً عائداً اليك وهاتفاً: إجعلني كأحد أجرائك يا من لأجلي بسط يديه الطاهرتين على الصليب لكي يختطفني من الوحش الرديء ويسربلني الحالة الأولى، أيها الجزيل الرحمة وحدك''. هنا ايضاً تعبير صادق عن وعينا لخطيئتنا وإرادة التوبة الصادقة التي نعبر عنها.

نموذج الإبن الضال هو احد الأمثلة الكتابية عن التوبة. انسحق متواضعاً نتيجة خبرته الأليمة فعاد عن خطيئته واستدار نحو الله. في التقليد الروحي الشرقي، تلعب التوبة دوراً أساسياً في حياة المسيحي. نعم تُغفر خطايانا في المعمودية ولكننا لا ننفك نرتكب الأخطاء. في التوبة نجدّد معموديتنا يومياً. التوبة هي ان نعترف بخطيئتنا ونشجب هفواتنا ونلوم أنفسنا. قد يقودنا هذا الى اليأس، لكن الرجاء حاضر في التوبة بسبب إيماننا بأن كان خطايانا غُفرت بالصليب. التوبة هي تحوّل القلب عن الخطيئة واهتداء داخلي وتغيير عملي في سلوك الإنسان يقوده الى ممارسة الفضائل. لذلك التوبة شرط أساسي مع التواضع لأحداث أي تقدّم في حياة الإنسان.

في مَثَل الإبن الشاطر نرى الحزن والتوجع. التوبة شخصية وتكون عن خطايا محددة، اما الحزن فيتجاوز التوبة. انه نوح عام وحزن على خلاص مفقود. قد لا تشمل التوبة الأحاسيس بينما الحزن شعور يعبّر عن ذاته بالدموع. تلعب الدموع دوراً مهماً في حياة المسيحي الشرقي. هي عطية من الله تغسل الخطايا مثل المعمودية. القديس يوحنا الذهبي الفم يقول ان دمعة واحدة تطفئ مجمرة من الأخطاء وتغسل حقد الخطيئة. لا يتبع الحزن فقط من الحس بخلاص مفقود، بل من الخوف من الدينونة، لأنه بالرغم من إننا قد نُسامح بعد التوبة على خطايا معينة، إلا إننا لسنا واثقين من إننا لن نخطئ ثانية، او إننا انتصرنا نهائياً على أخطائنا.

محبة الله اللامتناهية لنا وحدها الأمر الأكيد. لقد درج التقليد ان يسمى هذا المثل مثل الإبن الشاطر او الضال، وقد يجوز تسميته ايضاً مَثَل الأب المحب. كل خطيئة تُغفر اذا تبنا عنها. محبة الله منتظرة لاستقبالنا عند أول إشارة توبة نبديها. لنضرع الى الله ان يمنحنا دموع التوبة وقلباً منسحقاً لنستحق دخول ملكوته فنحيا من جديد.

+ من أقوال الآباء في الدموع

+ طوبى للباكين من أجل الحق، لأنه من خلال دموعهم يرون بإستمرار وجه الله. (القديس اسحق السرياني)

+ الدموع أثناء الصلاة هي علامة الحياة الطيبة، هو موهبة كبيرة. إسألوا هذه النعمة من الله، اسكبوا أمامه الدموع لتصير صلاتكم كالبخور قدامه. (القديس افرام السرياني)

+ حينما تفيض منك الدموع أثناء الصلاة لا تستكبر في ذاتك كأنما قد صرت أعلى من الآخرين. ولكن اعلم ان الصلاة هي التي وهبتك هذه الدموع لتمهد لك طريق الإعتراف بإشتياق، وتُحنن قلب القدير عليك! ولكن حذار ان تجعل الدموع شهوتك لأنها قد وُضعت لتكون ضد الشهوات فلا تشتهيها في ذاتها لئلا تُغضِب معطيها.

+ كثيرون قد نسوا الغرض الذي من اجله قدموا دموعهم، فتكّبروا وانحرفوا عن طريق الحق الذي ابتدأوا به وعاشوا في كبريائهم. (القديس نيلوس السينائي)

+ من الدموع ما يُعصَر عصراً حينما تكون العيون جافة والقلب قاسياً، ولكن بالرغم من ذلك فمثل هذه الدموع لن تسقط بلا ثمرة، فهي وإن كانت شحيحة إلا انها تدل على نية القلب للإغتسال من دنس الماضي وزلل الحاضر. ولكن من المؤكد ان الدموع لا تُذرَف بتغصُّب او تعب عند الذين أدركوا محبة الحق والسير بالطهارة.

لا تغصب نفسك على الدموع فهي لا تأتي بالعنف لئلا تسوقك الى صغر النفس من كثرة المحاولات الفاشلة.

إرفع عقلك في الصلاة وإتركه ينبسط بحرية الإرادة ليحلِّق في السماء، وترفَّع عن الدموع العواقر التي بالتغصُّب. (الأب يوحنا كاسيان)

+ ان كانت المعمودية قد طهّرتنا من الخطيئة المتوارثة فينا من آدم، فالدموع في تجديد لقوة تطهير المعمودية لغسل الخطايا التي عملنا في أنفسنا. المعمودية التي أخذناها اطفالاً قد دنسناها كلنا. والعين الباكية هي جرن دائم لمعمودية التوبة والتجديد. لو لم يهبنا الله نعمة الدموع لتعذَّر خلاص الكثيرين.

من اقتنى الدموع التابعة من العين النفسية الداخلية فقد ضبط النوح واحكم استعمالاته!

اما من تعوّد البكاء بالعين الظاهرة فقط فعليه ان لا يهدأ حتى يعبر الى معرفة أصول الدموع ومناقبها!

+ الكنز المستور تصعب سرقته، أما الظاهر فهو عُرضة للسلب والنهب. وهكذا الدموع، فالبكاء في الخفاء يبقى ويدوم، أما الظاهر فعُرضَة للضياع.

+ كل من يغضب نفسه على الدموع بغير معرفة وبغير هِمَّة وعمل وتوبة وندامة فهو يقدم تقدمة جسدية فحسب.

+ الذي اقتنى الدموع قد أبغض حياته وهجر جسده كما يهجر الإنسان عدواً له وصار يشتاق الى البكاء كاشتياق العطشان الى الماء البارد.

+ لا تصدق يا أخي دموعك قبل ان تبلغ حد الطهارة الكاملة.

+ ليس للمسجونين سرور في سجنهم، وليس للراهب الحقيقي عيد على الأرض، لأن عيده في دموعه وسروره في بكائه!

+ من لبس النوح السعيد كمنطقة على حقويه فقد كتب لنفسه الفرح الدائم مع القديسين في الحياة الأبدية.

+ قد رأيت كثيرين من الفقراء والمساكين الخالين من الفضائل، إغتصبوا ملكوت السماوات بكثرة بكائهم وصيامهم امام الله!

+ من افتخر بدموعه وبكائه وازدرى بالآخرين لعدم بكائهم، يشبه إنساناً التمس من الملك سلاحاً ليقتل به عدوه فقتل به نفسه!

+ يا أحبائي، الله لا يُسرُّ ببكائنا ووجع قلبنا، بل هو يريد ان نفرح معه دائماً ولا أحد ينزع فرحنا منا. فهو لم يخلق آدم باكياً، ولا جعل البكاء من طبيعتنا بعد القيامة، انما طوَّب الباكين الآن لأن البكاء يغسل جرح الخطيئة ويجففه!

+ تضحك الشياطين حينما ترى انساناً متكبراً يبكي، لأن البكاء يزيده تكبراً على تكبره!

+ إن النفس وقت خروجها من العالم لا تجد ما يعزيها ويشجعها إلا ما قدمته من التوبة والدموع! (الأب يوحنا السلّمي)

+ العبادة المسيحية (تابع)

لقد قلنا سابقاً ان هدف الليتورجيا والطقوس ان تقدم لنا خلاص الله للبشر وتعطينا ملء المسيح في مجده، المسيح القائم من بين الأموات، المنتصر عن الموت والشيطان، والجالس على العرش مع الآب. وهذا يتم على ثلاثة صعد:

+ الصعيد السماوي:

نقرأ في كتاب ''من أجل فهم الليتورجيا وعيشها'': ''كثيراً ما تسمى الليتورجيا ''الليتورجيا السماوية'' بل ''الإلهية''، هذا يعني ان الليتورجيا هي في جوهرها المسيح الإله في وضع المجد السماوي، جالساً عن يمين الآب وممارساً سيادته وملكه على كل الخليقة: ''المسيح الغالب''. هذا لأن ينبوع كل الطقوس المقامة في الكنيسة هو السماء، لذلك تعكس حقيقة الواقع السماوي.

ما كتبه الرسول يوحنا الحبيب في الإصحاح الخامس من سفر الرؤيا يوضح حقيقة ما سبق قوله. عندما كان منفياً في جزيرة بطمس، محروماً من القداس الإلهي، وكان ''يوم الرب'' (يوم الأحد)، انفتحت له السموات بالروح ورأى القداس يجري في السماء أي حقيقة الليتورجيا التي على الأرض، تسبيح الظفر من الملائكة والبشر ملتفين حول الخروف والمذبوح والحي في آن واحد، أي حول المسيح المصلوب والقائم من بين الأموات ، وساجدين له. ما يجب ان ندركه انه ليس هناك إلا مذبح واحد وليتورجيا واحدة هي الليتورجيا السماوية، ليتورجيا المسيح المصلوب والقائم من بين الأموات، والليتورجيا الأرضية ليست سوى إستحضار لليتورجيا السماوية وسر إنفتاح الزمن على الأبدية. جوهر الليتورجيا هو سر التدبير الإلهي، ويتجسد ابن الله الكلمة انفتحت لنا السماوات واصبحنا نتجاوز هذه الأرض للوصول الى الأبدية. على الأرض عدد كبير من الليتورجيات تنفتح أثناءها أبواب السماء لتحل نعمة الروح القدس على كل واحدة بإنفراد فتصير فعلاً صورة لليتورجيا السماء حيث المسيح الكل في الكل.

+ الصعيد الكنيسي:

''الى ان ينقضي الزمن ويعود المسيح الظافر في مجيئه الثاني تفعل الليتورجيا في الزمان والمكان لتحولهما الى المسيح. ففي الليتورجيا الإفخارستية خاصة تُنشأ الكنيسة في وسط العالم ويقدّس الكون ويؤله الإنسان''.

طالما نحن في الزمن وبإنتظار المجيء الأخير للرب، يقدم لنا الرب وتدبيره من خلال مؤسسة زمنية منظورة هي الكنيسة. فالكنيسة هي المكان الذي يتم فيه عمل الله، حيث تفعل نعمة الله الدائمة، ويتم تدبيره الخلاصي في العالم من اجل البشر، ذلك الخلاص الذي تم بالمسيح مرة واحدة والى الأبد ويتم في الكنيسة بالروح القدس بصورة سرية. الكنيسة هي اذا

مجرى تدبير الله الخلاصي في التاريخ اذا جاز القول. كل هذا يتم كما قلنا سابقاً عبر الليتورجيا والطقوس.

+ الصعيد الشخصي – الداخلي:

كل هذه الطقوس والصلوات تبقى بدون معنى اذا لم تتم على مذبح قلوبنا ومن قبل انساننا الداخلي. الكنيسة هي جسد المسيح والجسد مؤلف من أعضاء ، والأعضاء هم نحن جماعة المؤمنين. لكي تصبح هذه الطقوس والليتورجيا حيّة يجب ان يحياها كل إنسان في داخله ويشترك فيها ويعطيها من ذاته. يقول كاتب المزامير: ''من الاعماق صرخت اليك يا رب يا رب اسمع صوتي'' (مزمور ١٣٠: ١و٢). عندما نشترك في الليتورجيا نتمثل الله أي يصبح، بالمناولة، جزءاً منا، كما الغذاء، إذ هو غذاؤنا الروحي، فتنبث فينا حياة المسيح ويتحوّل كل منا الى كائن مسبّح. علينا ان نستعمل حواسنا كلها في الليتورجيا لنرتقي الى فوق: نشم البخور، نتأمل الأيقونات، نسمع الصلاة والتراتيل الجميلة، نتذوق الرب ونلمس الخلاص.

عندما نعي هذه كلها يصبح الجواب الذي أعطاها موفودو الأمير الروسي فلاديمير بعد حضورهم القداس الإلهي في القسطنطينية مفهوماً، إذ قالوا: ''لم نكن ندري أنحن في السماء ام على الأرض'' ذلك ان العبادة ليست بالنسبة للكنيسة الأرثوذكسية سوى ''السماء على الأرض''. وتشمل الليتورجيا العالمين معاً، لأنها سواء في السماء او على الأرض ، واحدة متماثلة، مذبح واحد وذبيحة واحدة وحضور واحد. وفي كل مكان من أمكنة العبادة ، حيث يجتمع المؤمنون لإقامة سر الشكر ، مهما كان متواضعاً في ظاهره، يرتفع هؤلاء الى المقامات السماوية ، وتشاركهم ''قوات السماوات بحال غير منظورة''، لذلك ندعو المؤمنين في القداس الإلهي ''ممثلي الشيروبيم'' عندما نرتل قبل الدورة الكبرى: ''ايها الممثلون الشيروبيم سرياً والمرنمون التسبيح المثلث تقديسه للثالوث المحيي، لنطرح عنا كل اهتمام دنيوي، كوننا مزمعين ان نستقبل ملك الكل''.

+ تـــأمـــل

في اللحظة التي يتوب فيها الإنسان الرحوم يغفر السيّد له خطاياه. والروح لا يتذكر الشر، حتى ولو أغضبناه او أخذنا منه ما هو له فإنه يبقى هادئاً لأنه يعرف رحمة ربّه. وهذه الرحمة، أي رحمة السيّد، لا يستطيع أي إنسان حرماننا منها لأنها تأتي من العلى، من الله.

كل البشر الأطهار المتواضعين، المطيعين، الخفرين الذين يتوبون عن خطاياهم يصعدون الى السماء، وهم يعاينون سيّدنا يسوع المسيح في المجد، ويسمعون تراتيل

الشيروبيم ولا يتذكرون الأرض وما على الأرض أبداً. لكننا نحن الذين على الأرض، نبقى متقلقلين مثل الغبار او التراب الذي يذريه الريح. ويبقى عقلنا ملتمساً بالدينونات.

آه، كم نفسي ضعيفة وعقلي أيضاً! هما مثل شمعة صغيرة، فإن نفخة خفيفة تكفي لإطفائهما، أما روح القديسين فدوماً ملتهبة مثل العلّيقة المشتعلة، ولا تخشى أي ريح. من يعطيني لهباً كهذا حتى لا يتركني حب سيّدي ليل نهار براحة؟ إن حب السيّد محرق. لأجله احتمل القديسون كل العذابات ونالوا القدرة على صنع العجائب. شفوا المرضى، أقاموا الموتى، مشوا على المياه، خطفوا الى الهواء وقت تضرعاتهم. وبصلواتهم أمطروا الهطل من السماء. لكن بالنسبة لي ، انا، فإني لا أريد ان أتعلّم إلا حب المسيح حتى لا أجرح أحداً وحتى أصلي لأجل البشر كما أصلي لنفسي.

يا لشقائي أنا الذي أحب الله بهذا القدر القليل، تجدني أكتب عن حب الله. لهذا فإني حزين ومكروب مثل آدم عندما طرد من الفردوس وشهق صارخاً: ''إشفق عليّ يا الله، ترأف على جبلتك الساقطة. كم مرة منحتني نعمتك، لكن، بسبب كبريائي، لم أحفظها، مع أن روحي تعرفك فأنت خالقي وإلهي. لهذا أبحث عنك باكياً، كما بكى يعقوب آباه على قبر أمه، عندما أخذ عبداً الى مصر.

يا الله إني اغضبك بخطاياي، ولقد انسحبت مني؛ تركتني. إن روحي تتوق اليك وتمتد وراءك.

''أيها الروح القدس لا تتركني. فعندما تبتعد تهاجمني الأفكار الشريرة وتلحّ عليّ، فتنهد نفسي باكية، باحثة عنك.

''أيتها الملكة الكليّة القداسة، يا والدة الإله، أنت ترين حزني، فإني أغضبت السيّد وهو قد تخلّى عني ، لكني أترجى صلاحك فخلصيني، انا خليقة الله الساقط في الخطيئة ، خلّصيني أنا عبدك''.

إذا فكّرت سوءاً بالآخرين، فتلك هي العلامة ان روحاً شريراً يسكن فيك وانه يوحي اليك بهذه الأفكار الشريرة ضد البشر. وإذا مات أحد بدون توبة وبدون أن تغفر لأخيه، فإن روحه ستنزل الى حيث يسكن الروح الشرير، ذاك الذي يتسلّط عليه.

ولنا نحن هذه القاعدة: إذا سامحت فهذا يعني ان السيّد سيغفر لك، لكنك إذا لم تغفر لأخيك، فهذا يدل على أن خطيئتك ساكنة فيك.

إن السيّد يريد أن نحب قريبنا. فإذا فكّرت بأن السيّد يحبّه، فهذا يعني إن حب السيّد معك. وإذا فكّرت بأن السيد يحب خليقته كثيراً، إذا كان عندك أنت الرأفة على كل الخليقة وتحب أعداءك، وتحترم أسوأ البشر، فهذا يدل على ان نعمة الروح القدس العظيمة هي معك.

القديس سلوان الآثوسي